



# الأنوثة والروحانية مثال مريم في تفاسير القرآن بالإشارات

طيب شويرف

الأكبر عند الصوفية، كيف غيرت حياته الروحية رؤيته للمرأة؛ "ولقد كنت من أكره خلق الله تعالى في النساء وفي التجماع في أول دخولي إلى هذا الطريق وبقيت عنى ذلك نحواً من ثمان عشرة سنة إلى أن شهدت هذا المقام وكان قد تقدم عندي خوف الملقث لذلك لما وقفت على الخبر النبوي أن الله حبيب النساء لنيبه، صلى الله عليه وسلم، فما أحبهن طبعاً ولكنه أحبهن بتحييب الله إليه. فلما صدقت مع الله في أنتوجه

كثيراً ما قيل إن مكانة المرأة سرعان ما تراجع في العلم الإسلامي بعد وفاة الرسول. إن كان ذلك صحيحاً إلى حد ما في المجال الاجتماعي فإنه بعيداً عن الحقيقة في ميدان الحياة الروحية كما نراه من خلال قراءة الكثير من المؤلفين، وخاصة منهم الصوفية. فإنهم يرون في الأنوثة الجانب الانفعالي للحق من جهة، وقطرة النفس المتوجهة إلى حب الله من جهة أخرى. فمتلا يذكر ابن عربي الحاشي (ت ٦٣٨ هـ)، الملقب بالشيخ

إليه تعالى في ذلك من خوفي مقتت انه حيث أكره ما حيبه الله لنبيه أزال عني ذلك بحمد الله وحببهن إلي فإنا أعظم الخلق شفقة عليهن وأرعى لحنهن لأني في ذلك على بصيرة وهو عن تحبب لا عن حب ضياعي." فنفهم من خلال القول السابق أن ذلك الحب للنساء نتج عن طلب شهود الله في خلقه. فموقف ابن عربي من هذا يتطلب موقف قطعي: من بحث بإخلاص عن هذا شهود وجد أن شهود الرجال للحق في النساء أتم وأكمل. فيقول: "إذا شاهد الرجل الحق في المرأة كان شهوداً في منفعل، وإذا شاهدته في نفسه من حيث ظهور المرأة عنه شاهدته في فاعل، وإذا شاهدته في نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة. فشهوده للحق في النساء أتم وأكمل، لأنه يشاهد الحق من حيث هو داخل منفعل، ومن نفسه من حيث منفعل خاصة."

### ولادة مريم ونشأتها

يروى أن أم مريم كانت تسمى حنّة بنت فاقودا وكان زوجها عمران بن ماثان. كانت عاقراً لم تلد، إلى أن عجزت فدعت ربيها أن يرزقها ولداً يكون خادماً للمعبد في بيت المقدس؛ إذ قالت امرأة عمران ربّ إني نذرتُ لك ما في بطني محرراً فتقبلي مني إنك أنت السميعُ العليم". منذ بداية التفسير الإشاري حاول المفسرون توضيح المعنى الروحي لكلمة "محرراً"، وفي هذا الصدد يقول مهمل التستري (ت ٢٨٣ هـ) في تفسير هذه الآية: "أي حررته وأعتقته من رقبتي الدنيا من متابعة هواه ومرادات نفسه، وجعلته خادماً لعباد بيت المقدس خالصاً لله تعالى". ويذكر أبو عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢ هـ) بعض الأقوال في معنى كلمة "محرر"، من بينها قول محمد بن عبي: "محرراً أي: يكون لك عبداً مخلصاً، ومن كان خالصاً لك كان حراً مما سواك".

وقد سمع الله سبحانه دعاء حنّة، فصلمت وكانت ترجو أن تزرّق غلاماً لتهبه لخدمة المعبد في بيت المقدس، ولكنها رزقت بنتاً، والبنت لم تكن لتقوم بالخدمة في المعبد، لذلك قالت لله تعالى: (ربّ إني وضعْتُها أنثى والله أعلم بما وضعت) وأليس الذكر كالأُنثى؟". وهناك أضافت حنة: (وإني سميتها مريم) وإني أعيدها بك ودربتها من الشيطان الرجيم). يقول عبد الكريم القشيري (ت ٤٦٥ هـ) في تفسيره للآية السابقة: "استجارت بالله من أن يكون للشيطان في حديثها شيء مما هو الأسهل، لتمام ما هم به من أحكام القلوب".

إليه تعالى في ذلك من خوفي مقتت انه حيث أكره ما حيبه الله لنبيه أزال عني ذلك بحمد الله وحببهن إلي فإنا أعظم الخلق شفقة عليهن وأرعى لحنهن لأني في ذلك على بصيرة وهو عن تحبب لا عن حب ضياعي." فنفهم من خلال القول السابق أن ذلك الحب للنساء نتج عن طلب شهود الله في خلقه. فموقف ابن عربي من هذا يتطلب موقف قطعي: من بحث بإخلاص عن هذا شهود وجد أن شهود الرجال للحق في النساء أتم وأكمل. فيقول: "إذا شاهد الرجل الحق في المرأة كان شهوداً في منفعل، وإذا شاهدته في نفسه من حيث ظهور المرأة عنه شاهدته في فاعل، وإذا شاهدته في نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة. فشهوده للحق في النساء أتم وأكمل، لأنه يشاهد الحق من حيث هو داخل منفعل، ومن نفسه من حيث منفعل خاصة."

إن مريم هي المرأة التوحيدة التي ذكر اسمها في القرآن. وأكثر من ذلك، تحمل السورة التاسعة عشر اسم "مريم". وفي سورة أخرى تقول لها الملائكة: (إنا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين). ونجد في الأحاديث النبوية أن مريم هي سيدة النساء الأولى وأفضل النساء على الإطلاق. قال رسول الله: "سيدات نساء أهل الجنة بعد مريم ابنة عمران، فاطمة، وخديجة، وآسية امرأة فرعون". "فإن التالي ليس من المدهش أن نجد المفسرين بالإشارة فدأمعنوا النظر في شخصية مريم ورمزية حياتها.

إن أصحاب التفسير الإشاري يرون في كل آية من "قرآن" ظاهراً وباطناً. فالظاهر هو "الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره والباطن هو ما وراء ذلك من إشارات خفية تظهر لأرباب القلوب الذين سلخوا طريق التقرب إلى "الله والوصول إلى مقام الإحسان". ويرى ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١) في "تفسير الإشاري استنباطاً حسناً مقبولاً إذا كان مراعيًا أربعة شروط: "وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون، وتفسير على المعنى، وهو الذي يذكره "سلف. وتفسير على الإشارة واتقياس، وهو

الخشوع والخشوع مع الخاضعين".

وعند القاشاني أيضاً تمثل بكارة مريم استعداد النفس لتلقي العلم اللدني: "قَالَتْ رَبِّ أَلَيْسَ لِي وَلَدًا تُعْجِبُ النَّفْسَ مِنْ حَمْلِهَا وَوِلَادَتِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْمَا بَشَرًا، أَيْ مِنْ غَيْرِ تَرْبِيَةِ شَيْخٍ وَتَعْلِيمِ مَعْلَمٍ بَشَرِي، وَهُوَ مَعْنَى بَكَارَتِهَا {قَالَ كَذَلِكَ أَلَّهُ يَخُفُّ مَا يَشَاءُ} أَيْ: يَصْطَفِي مِنْ شَاءَ بِالْجَذْبِ وَالْكَشْفِ وَيَهَبُ لَهُ مَقَامَ الْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ تَرْبِيَةِ وَتَعْلِيمِ كَمَا هُوَ حَالُ الْمَحْبُوبِينَ وَيُعْضِرُ الْمَحْبُوبِينَ".

### حمل مريم المسيح وولادته

ثم نزل جبريل على مريم على هيئة رجل وهي معتكفة تعبد الله ليبشرها بالمسيح: {وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أُمَّهَاتِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}. يرى العالم المغربي أحمد بن عجيبة (ت ١٢٢٤ هـ) في الآيات السابقة إشارة إلى تنوير قلب المؤمن الناتج عن قطع العلاقات الدنيوية والعزلة في عبادة الله وذكره. فيقول في تفسيره: "لا تظهر النتائج والأسرار إلا بعد الانتباه عن الفجور، وعن كل ما يشغل القلب عن التذكار، أو عن الشهود والاستبصار، فإذا اعتزل مكاناً شَرْقِيًّا، أَيْ: قَرِيبًا مِنْ شُرُوقِ الْأَنْوَارِ وَالْأَسْرَارِ، بَحِثْ يَكُونُ قَرِيبًا مِنْ أَهْلِ الْأَنْوَارِ، أُرْسِلَ إِلَيْهِ رُوحًا قَدْسِيًّا. وَهُوَ وَارِدٌ رِبَانِيًّا تَحِيًّا بِهِ رُوحُهُ وَسِرُّهُ وَقَبْضُهُ وَقَالَهُ، فَيَهَبُ لَهُ عِلْمًا لَدُنْيَا، وَسِرًّا رِبَانِيًّا، يَكُونُ آيَةً لِمَنْ بَعْدَهُ، وَرَحْمَةً مِمَّنْ اقْتَدَى بِهِ وَتَبِعَهُ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ". كذلك يرى روزبهان بقلي شيرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تعبد مريم إشارة إلى جوهر الفطرة الإنسان. وتلك الفطرة متوجهة إلى حب الله والأنس به، فيقول: "الإشارة الحقيقية ههنا أن جوهر مريم جوهر فطرة القدس قرباه الحق بنور الأنس ففي جميع أنفاسها مجذوبة بنعت القرب والأنس إلى معدن الأنوار الأنوهمية فصارت كمن وقت مراقبة بظهور شمس الجبروت من مشرق الملكوت فاعتزلت عن الأكون بالهمة العالية المتعوتة بنور الغيب... فلما خلت بذلك النور والبرهان

إن الله فعلى قبل من أم مريم لنذر، وجعله نذراً مباركاً: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}. يرى المفسرون بالإشارات أن الآية إشارة إلى تلقي العدم والنور. يقول ابن عربي: "أزيم المحراب يأتيك رزقك بغير حساب أي الزم موضع عبادتك وذاتك، فالزم نفسك لتعرف قدرك، يأتيك رزقك بغير حساب، من حيث لا تتحسب، أي إذا اشتغلت بعبوديتك فهو يعطيك من العلوم ما تحب وتريد". وعبد الرزاق القاشاني (ت ٧٣٠ هـ) أكثر وضوحاً في تفسيره للآية: "ووجد عندها رزقاً يجوز أن يواد به الرزق الروحاني من المعارف والحقائق والعلوم والحكم الفائضة عليها من عند الله، إذ الاختصاص بالعبودية يدل على كونها من الأرزاق الدنية".

### اصطفاء الله لمريم

فنشأت مريم في خدمة المعبد، وهي المنذورة المقيمة في المحراب، فكانت فتاة عبادة قانتة في خلوة المسجد تحيي لينها بالذكر والصلاة وتصوم النهار. فنزلت عليها ملائكة لتخبرها أن الله اصطفاه على نساء العالمين: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ".

إن اصطفاء الله لمريم مع تنزه المؤمن المخلص عن الشهوات في تفسير القاشاني: "وكذا قالت ملائكة القوى الروحانية بريم النفس الزكية الطاهرة (إن الله اصطفانا) لتنزهك عن الشهوات (وظهرتك) عن رذائل الأخلاق والصفات المذمومة (وأصطفاك على نساء) نفوس الشهوانية الملونة بالأفعال الذميمة والملكات الرديئة (يا مريم) أطيعي ربك بوظائف الطاعات والعبادات (وأسجدي) في مقام الانكسار والذل والافتقار والعجز والاستغفار (وأركعي) في مقام

# كلام مريم بكلماتها

الصفات والذات".

وخلاصة القول إن مريم تمثل في القرآن، حسب المفسرين بالإشارة، القنب الطاهر الممتثل إلى ذكر الله وعبادته. وتتم هذا المقال بتفسير إشاري معاصر ترجمت إلى العربية مقطعا للمفكر الألماني الأصل والصوفي المشرب فريتيوف شوون (ت ١٩٩٨)، يبين فيه أن مريم تمثل حياة القنب الروحية:

"(وَمَرْيَمَ إِتَتْ عِمْرَانُ الَّتِي أَحْضَنَتْ فَرْجَهَا فَتَفَحُّنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الثَّانِيَةِ) " [١] إن العبارة القرآنية (أَحْضَنَتْ فَرْجَهَا) التي تعبر عن حالة جسدية معينة ترمز في الوقت نفسه إلى القنب: فالله سبحانه يزرع في القنب الممتثل إليه عنصرا من طبيعته جل وعلو لينفتح على التعالي الحاضر أبدا في الروح الريفانية. إلا أنه يظل خفيا عن القلوب التي تصلبت حتى تبخرت وتدنست، وتصور آية (فَتَفَحُّنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) تقدس الروح التي

فبان بها نور صدر من تجلي الجلال والجمال".  
رغم ما قاله روزبهان بتلي عن ظهور نور الأنس للنفس الزكية، يميز هذا المفسر بين الناسوت واللاهوت ويبين أن سبب تمثل الروح في صورة بشرية هو "عجز الناسوت عن إدراك اللاهوت: "إفَّا رُسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا" إذا فرغنا من وصف القدس اللاهوت عن الناسوت وعجز الناسوت عن إدراك اللاهوت وتنزيه جلال الحق عن مازحة الخلق وإفراد تقدم عن الحدوث وعزة جماله وكبرياء أزمته عن المماثلة والمشابهة، نقول إن إرسال الحق روحه إليها أن ذلك الروح ظهور تجلي قدس الذات في نور الصفات ونور الصفات في لباس الأفعال على صورة حسنة مرغوبة إليها ميل كل روح بنعت الشوق إليها وذلك روح الفعل وروح النصفة وروح الذات في لباس نوره على قدر عقلها لذلك قال { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } وهذا عادة ظهور الحق في بداية عشق العاشقين ليجذب بها أرواحهم وقلوبهم إلى معدن تعريف

- ١٣ سورة آل عمران، الآية ٣٦
- ١٤ الرحمة من الرحمان في تفسير وإشارات القرآن، دمشق، ١٩٨٩، الجزء ١، ص ٤٣٦.
- ١٥ القشاني، تأويلات القرآن، الجزء ١، ص ١٨٢.
- ١٦ سورة آل عمران، الآية ٤٣-٤٤.
- ١٧ القشاني، تأويلات القرآن، الجزء ١، ص ١٨٥.
- ١٨ القشاني، تأويلات القرآن، الجزء ١، ص ١٨٧.
- ١٩ سورة مريم، الآية ١٧.
- ٢٠ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، القاهرة، ١٩٩٩، الجزء ٣، ص ٣٣٦.
- ٢١ عرائس البيان في حقائق القرآن، بيروت، ٢٠٠٨، الجزء ٢، ص ٤٥٦-٤٥٥.
- ٢٢ عرائس البيان في حقائق القرآن، بيروت، ٢٠٠٨، الجزء ٢، ص ٤٥٦.
- ٢٣ سورة التحريم، الآية ١٢.
- ٢٤ Frithjof Schuon, *Forme et Substance dans les religions*, Paris, 1975, p. 114-115

ثم عن معنى 'تقربي' وذلك على خفاء العطاء وعمقه. **صَدَقْتُ بِكَلِمَاتٍ زَيْبًا وَكُتِبَ لِي:** إن الكلمات ترمز هنا إلى اليقين الباطن والعقل الذي يحتوي على الحقائق الميتافيزيقية، والكتب هي الوحي الذي جاء من الظاهر. وحتى تكون قد آمنت. **وَاصْدَقْتُ** يعني لا اتسليم بصعوبة وبسطحية الذهن، بل الإيمان الصادق. أي الإيمان الذي يوافق النتائج الباطنة ولا الظاهرة التي يقتضيهما الحق، ولذا وصفها المسنونون بـ'الصدقية' التي آمنت حقا وصدقًا.

**وَكَانَتْ مِنْ 'تَقَاتِيْن'**: إن 'المصطلح انعربي' 'قنوت' يعني دوام العبادة والذكر والاستغراق فيهما، وهو ما يصور مريم 'التي أمضت طفولتها وصباها في انحراب فكانت تجسيدا لذكر الله والمجاهدة'.

من خلال تأمل 'الإشارات' التي تخص بحياة مريم يبدو لنا أنها رمز للنفس المتبثلة إلى ذكر الله وعبادته. فالأنوثة تتجلى هنا كقابلية لتلقي النور الرباني. إذًا يوسع كل مؤمن، سواء أكان ذكرًا أم أنثى، أن يجد تلك الأنوثة الروحية في عمق ذاته.

## المراجع

- ١ الفتوحات المكية، الجزء ٤، ص ٨٤.
- ٢ فصوص الحکم، ص ٢١٧.
- ٣ سورة آل عمران، الآية ٤٢.
- ٤ رواه الطبراني بإسناد صحيح.
- ٥ الإحسان، كما عرّفه الرسول، "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك".
- ٦ مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٣٤٧.
- ٧ كذا سماه المفسرون.
- ٨ سورة آل عمران، الآية ٣٥.
- ٩ تفسير التستري، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٤٨.
- ١٠ انظر تفسيره للآية ٣، ٣٥ في حقائق التفسير، بيروت، ٢٠٠١.
- ١١ سورة آل عمران، الآية ٣٦.
- ١٢ القشيري، لطائف الإشارات، بيروت، ٢٠٠٠، الجزء ١، ص ١٤٤.